عبد الرزاق عبد الواحد

الصوت

ملحمة شعرية

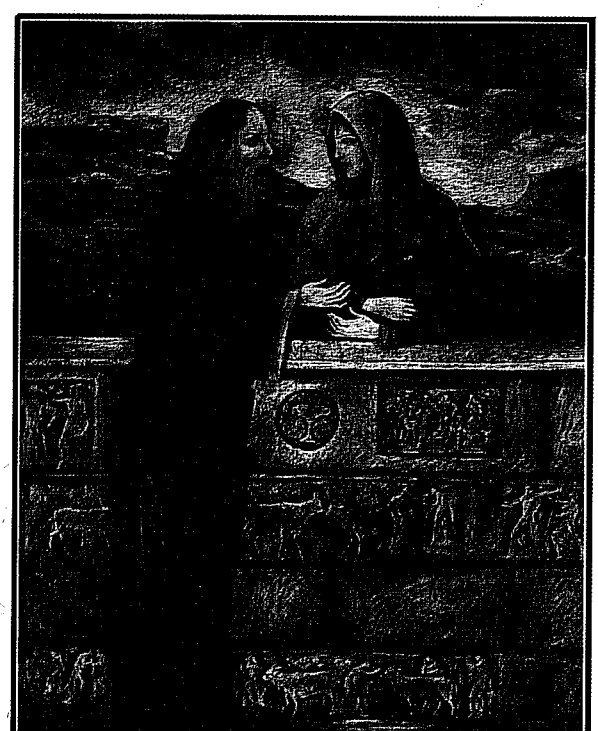

الطبعة الثانية

الصَّوت

عبد الرزاق عبد الواحد

الصَّوت

ملحمة في أربعة فصول

1972–1993

الطبعة الثانية

النُّبوءَةُ والسَّفَر

أقفلَت القُرَّاءُ حَناجرَها

الصُّحُفُ الأولى طُويَتْ

هذا عصرٌ لا آذانَ لَهُ

مَن أمطَرَ فَليُمطِرْ مِن سِجِّيلْ

فالأرضُ السَّاعَةَ لا تشرَبُ ماءً

قُطِعَتْ أعناقُ النُّذُرِ الأولى

وتَخَطَّتْ عُنُقٌ واحدةٌ سَيفَ العَصرِ

هيَ الصَّيحَةُ

هذي سِمَةٌ أعرفُها

يَتَدَلَّى الرَّعدُ

فَتَشرَبُهُ الأرضُ

تَطلعُ شمسٌ سَوداءُ

لا يَلبَثُ ماءٌ في مَجراهُ سِوى يومٍ

ثمَّ يُغَيِّرُهُ

يُولَدُ أطفالٌ لا أسماءَ لهُم

ثمَّ يَجيءُ الصَّوت

هيَ الصَّيحَةُ

مَن يُوحَ إليهِ فَلا يَرتَبْ

أو يَزجُرْ وَحيَهُ أو يَهربْ

منهُ

فهذا عصرٌ يَصدُقُ حتى الشَّيطانُ

نبوءَتَهُ

عُنُقٌ تَتَخَطَّى

السُّلطانُ الصَّمتُ المُتَرَبِّعُ في ناقوسِ العالَمِ

يَتَأرجَحُ هذي السَّاعَةَ
فالعُنُقُ التَقَطَتْ حَبلَ النَّاقوسِ
وَلَفَّتْ لَوزَتَها

يا شَجَرَ المَوتى
أورِقْ آذاناً
وَتَرَصَّدْ

هذا أوَّلُ عَهدي بالدَّينونَهْ
أفتَحُ عيني
تَتبُتُ كالبَرقْ
يَدخُلُ جلدُ العالَمِ في اللَّحمِ
تَشِفُّ الأشياءْ

الأُفْقُ يَلُمُّ جَناحَيهِ
وَيَفتَحُ قَوسَهْ

الصَّوتُ سيَأتي

مِن مَنبَتِ عَينٍ عَبْرَ القوسِ المَفتوحَةِ

يأتي الصَّوتُ

فَأورِقْ يا شَجَرَ المَوتى

السَّاعَةَ يَنهَضُ رَبٌّ

يَبرَحُ عَصراً مَرجوماً

يَمتَدُّ إلى عَصرٍ راجِمْ

تَتَفَتَّحُ بينَ يَدَيهِ الأسماعُ

وَتَنعَقِدُ الألسُنْ

يأتي بحروفٍ تَبيَضُّ لها الأعيُنْ

تَلصَقُ بالجَبهَةِ

تَجري نَبْعاً

أو تُورِقُ جَمرا

تُلغي الأسماءَ

وتَحفُرُ في الأوجُهِ أسماءً أُخرى

مَن يَسمَعْ هذا الصَّوتَ

فَقَد وَجَدَ اسماً يَحملُهُ عندَ الطُّوفانْ

أمَّا مَن لا يَبلُغُهُ الصَّوتُ

وَمَن يَبلُغُهُ الصَّوتُ فَلا يَسمَعُ

أو يَحشو بأصابعِهِ أُذنَيهِ فَلا يَسمَعُ

فالوَيْلْ

أولاء يَهيمونَ على الأرضِ بِلا أسماءٍ

وَيَدُقُّونَ الأبوابَ فَلا تُفتَحْ

أولاء يَطوفونَ على النِّيرانِ بأوجُهِهِم

يَستَجدُونَ حَريقا

يَتَدَلَّونَ إلى المَوجِ رِقاباً مَمدوداتٍ

تَتَوسَّلُ أن تُغرَقْ

يَبتَعِدُ الماءُ

وَتمتَدُّ

وَيَبتَعِدُ الماءْ

أولاء يَظلُّونَ نِداءً مَرفوضا
ليسَ لهُ اسمٌ يُدعى في الحَشْرِ بهِ
يَسعَدُ أو يَشقى

سَيقولُ مُكابِرُهُم لم نَسمَعْ صَوتا
وَيَقولُ الكاذِبُ
بَل جاءَ الصَّوتُ
وما خُيِّلَ لي أنِّي المَعنيُّ
ولم يَتَوَقَّفْ كي أستَوضِحَهُ شَيَّا

وَيَقولُ مُنافِقُهُم
بَلْ جاءَ الصَّوتُ
وَدَقَّ عليَّ البابَ
وناداني

وَيلُمِّي
لم تُسعِفْني قَدَمايَ لأتبَعَ مَن لَبَّى

قُلْ كلٌّ مِن فَجٍّ يؤتى
سَيَموتُ النَّاسُ وَيَحيَونَ
يَموتونَ وَيَحيَونَ
وأنتُم
لا أحياءٌ في النَّاسِ
ولا مَوتى

طُوبى لِلمُغتَرِبينْ
طُوبى لِلمَنفيِّينْ
طُوبى لِلمَزروعينَ جذوعاً في أرضِ المَوتِ
سَيَبلُغُهُم صَوتي

ها أنَذا أفتَحُ سِفْرَ الرُّؤيا

إنِّي مُمتَدٌّ عَبْرَ فضاءٍ أبيَضَ في قرطاسٍ أبيَضْ

فَلتَغرَقْ كلُّ لُغاتِ العالَمِ

هذا مَوجٌ لا تُبحِرُ فيهِ الكَلِمات

ولكنَّ الحُلُمَ الرُّؤيا

يَنسابُ عليهِ شِراعاً مَسكوناً بالصَّوت

هوَ الوَحيُ

فَهَل تَسمَعُ آذانُ المَشبوحينَ على الشَّاطئْ؟

إنِّي بالِغُ سَبَأْ

آتيكُم بِنَبَأْ

مَن صَدَّقَ

فَليَخلَعْ مِن رَملِ الشَّاطئ كَتِفَيهِ

فَيَلحَقْ بي

أو يَهرَبْ مِن كَتِفَيهِ

فَيَلحَقْ بي

فإذا كَذَّبتُم

فانتَظِروا حتى يأتيَكم مَدُّ الرَّملِ فَيَطغى

ها أنّذا مالِكُ ضَفَّتيَ الأُخرى

فَمُطِلٌّ عَبْرَ المَجرى

فَمُبَلِّغُكُم ما ألقى..

وَحيداً

مَرايا مِن الصَّمتِ تَتداحُ..

تَلصِفُ..

تَستَنزِفُ الرُّوح

لا شيءَ يَجرَحُها

هَبَطَتْ خُطوَتي

فَتَكَسَّرَ مِن تَحتِها الصَّمت

لم أنقُل القَدَمَ الثّانيه

وَقَفتُ..

تَرامَتْ أمامي المَسافاتُ

مَلساءَ مَصقولَةً

أيُّ سَيرٍ لو أنَّ الخُطى تَخلَعُ الآنَ أقدامَها!

أورَقَتْ غُربَتي

المَسافاتُ تَنهَبُ عَينَيَّ

تَنهَبُ أوردَتي

أتَمَدَّدُ حَدَّ التَفَصُّمِ

يَسحَبُني مَنبَتُ القَدَمِ المُستَقِرَّةِ في لَحمِها

أيُّها المَطهَرُ السَّرمَديُّ

إليكَ حَمَلتُ لَهيبي

أنا القادِمُ المُتَصَبِّئُ

أُنْبِئُ المُتَنَبِّئْ..

تَحطَّمَ لَوحٌ مِن الصَّمتِ
جَرَّحَني
لم أفُهْ
لم أدّعْ أيَّ هاجسَةٍ تَتَحَرَّكُ
كانَتْ جراحيَ تَنزفُ
يَنسَلُّ منها الضَّجيجُ
وكنتُ أشِفُّ روَيداً ..

وألفَيتُني عائماً
مُرهَفاً
مثلَ خَيطٍ من الضَّوء أنأى
وكانَتْ بَقاياي تَرمُقُني

أيُّها الجَدوَلُ المُتَرَقرِقُ بينَ العيونِ وأهدابِها
السَّماواتُ تَكسرُ أختامَ أبوابِها
تَتَنَحَّى المَجَرَّات

يَنهَضُ مِن بَينِها نَيْزَكٌ

يَتَحَدَّرُ

تَتفَتَحُ القَوسُ

ها أنّذا مِلْءَ مَوجِكَ يا جَدوَلاً يَتَرَقرَقُ

بينَ العيونِ وأهدابِها

آتياً

مِلْءَ حُنجُرَتي الصَّوت

يا شَجَراً عَثْكَلَ الموت

أغصانَهُ السُّودَ

أورِقْ

تُنَصِّبْ ضِفافُ الخَطيئةِ آذانَها

إنَّهُ الصَّوتُ يأتي..

إِرَم قبل الطُّوفان

أيَّتُها الآذانُ عَبْرَ شاطئِ القيامه

أُبصِرُ أرضاً

كلُّ رؤيا فَوقَها يُكسَرُ صَولَجانُها ..

مَن أذِنَ السَّاعَةَ أن تَنهَضَ هذهِ العِماد؟

مَن دَعا إرَمْ

فانزَرَعَتْ مَهَبَّ عَيني؟؟

تَكذِبُ الرُّؤيا فَلَم تَبرَحْ مَكانَها؟

أم المَوجُ الذي أبحَرَ بي أعادَني؟

يا نَيزَكاً كلُّ المَجَرَّاتِ تَنَحَّتْ عن طريقِهِ
انتَظِرْ
إن كانَ لَوحاً قد حَفظتَهُ فَلا تَقرأْ
إنِّي نَذَرتُ سَفَراً أبيَضَ لم تُبحِرْ عليهِ عَينْ
فإنْ تَكُنْ يا نَيزَكاً أنشَبتُهُ عَبْرَ مَدارِ الكونِ
لم تُخطئْ
فإنِّي قد وَلَجتُ إرَماً عَذراءَ
لم يَهبُطْ سوى هذا السَّديمِ البِكرِ
في تُرابِها

تَنهَضُ مِن مَوطئ أقدامِيَ أقواسٌ
تَدورُ الكَونْ
وتَنتَهي في نقطَةٍ وَقَفتُ فيها
كلُّ لَحظةٍ هي الدَّهرُ جميعاً
كلُّ خطوَةٍ هيَ المَدى

وهيَ لا شيء..

هُنا يَفقُدُ كلُّ قادمٍ سيماءَهُ
يُلمَحُ طفلاً
ثمَّ شَيخاً طاعِناً
تَختَلفُ الجدودُ والأبناءْ
في وَجهِهِ في لَحظةٍ،
وتَختَفي جَميعاً

يَبلُغُني
أراهُ دونَ وَجهْ
تُزرَعُ في راحَتِهِ عَلامَهْ
أرنو لَهُ يَمضي بها
وبينَ عَينَيَّ وَصَوتي رَهَجُ القيامَهْ..

أيَّتُها الآذانُ كوني في مَهَبِّ الصَّوتْ

أُبصِرُ ما لم ترَ قَطُّ عَينْ

ذَكَرتُني طفلاً..

وعندَ لحظةِ التَّذَكُّرْ

رأيتُني

مَرَرْتُ مِن أمامِ عَينَيَّ ابنَ عَشرِ سَنَواتٍ

نَفسُ ثَوبي

نَفسُ مَحفوظتيَ الأثيرَه

أقرؤها..

ثمَّ اختَفَيتُ

لم أكُنْ طَيفاً

فَها آثارُ أقداميَ ما تَزالُ

والصَّوتُ الذي سَمِعتُهُ

أعرِفُهُ..

لَنْ أكذِبَ الرُّؤيا

وإنْ كذَّبَ قومُ نُوحْ

يا عَطَشَ الأنهُرِ والضِّفافْ

أُرخي على شَفرَةِ سَيفٍ عُنُقي

مِن أجلِ نَظرَةٍ خلالَ الذَّبحِ بينَ مُقلَةِ السَّيَّافْ

أحفِنُ مِن تُرابِ هذي الأرضْ

فَتَصهَلُ النِّيرانُ مِن مَوضعِ كَفِّي..

سِمَةٌ أعرِفُها

إرَمْ

إلَيَّ يا مَهيبَةَ النِّيرانْ

يا تَوأمي مُشتَعِلَ الأغصانْ

يا شَجَناً أعرِفُهُ..

أيَّتُها الآذانْ

تَعَرَّت اللَّعنَةُ مِن إهابِها

إرَمْ

تُكَسِّرُ الأختامَ عن أبوابِها

تَخرُجُ لي عاريةً

أقبَلَ قومٌ يَركضونَ دونَ أرجُلٍ

رأوني

انكفَأوا

قَلَبتُهُم

لستُ أرى لهم وجوهاً

غيرَ أنَّني أرى

مَواضِعَ العيونِ والأنوفِ والأفواهِ

في التُّرابْ

سَألتُهُم

لم يَنطقوا

لكنْ سمِعتُ رِعدَةً تَصعَدُ في يَديَّ مِن رؤوسِهِم

تَوَسَّلَتْ ألاّ أمسَّ خوفَها

قالَتْ

تَرَكنا شَجَراً أغصانُهُ تَفرُّ مِن جذوعِها

قالَتْ تَرَكنا كلَّ أُمٍّ طائرٍ تأكلُ فَرخَها

تَرَكنا الرِّيحْ..

أيَّتُها الآذانْ

أُبصِرُ أرضاً فَتَحَتْ أفواهَها

تَشرَبُ رَعداً

بَطنُها تَمَزَّقَتْ

أُبصِرُ سَبعَ سُنبُلاتٍ تَنهَضُ السَّاعةَ

أومَأتْ لِسَبعِ بَقَراتٍ

أكَلَتْها

فاختَفَتْ ضروعُها..

حَوليَ قَومٌ شُغِلوا بِناقَةٍ مَعقورَه

أكُفُّهُم تَرفَعُ جِذعَها إلى قائمَتَيها

كلَّما أوشكَ

مالَ الجذعُ مِن جَديدْ

وَيْ.. إنَّها ثَمودْ

مأخوذَةٌ بهذِهِ النَّاقَةِ حتى يُرفَعَ الميزانْ

ثَمودُ يا ثَمودْ

أحملُ عنكِ لَعنَةَ الأبَدْ

لو أنتِ صَدَّقتِ بأنَّ صالِحاً ليس هو النَّاقَه

وأنَّهُ يَعود

يَعودُ يا ثمود

مِن رِحلَتِهِ الكُبرى

وناقَةٌ تَتبَعُهُ أُخرى

أدفَعُ رأسي ثَمَناً

لو أنتِ لم تُحاولي

أن تَعقريها مَرَّةً أُخرى

يَدخُلُ بَهوَ الصَّمتِ قَومٌ حَمَلوا قبورَهُم

صِيحَ بِهِم

تَوَقَّفوا

تَلَفَّتوا إلى وجوهِ بَعضِهِم

وأنزَلوها..

دَفَنوا أنفُسَهُم.

صِيحَ بِهِم

عادوا وقوفاً

حَمَلوا قبورَهُم

وساروا

صِيحَ بِهِم..

أيَّتُها العَوالِمُ المَقطوعَةُ الألسُنِ واليَدَينْ

تَمتَلِكينَ أعيُناً لِلخَوفْ

تَمتَلِكينَ أرجُلاً لِلخوفْ

فَلتَركُضي،

لا تَسألِيني أينْ

يا قَدَراً أكونُهُ

يا قَدَراً صاحبُهُ أوَّلُ مَن يَخونُهُ

في هذهِ الأرضِ التي تأكلُ أنبياءَها

باسمِكَ في هذا الجَحيمِ أبدأُ القيامَه

أيَّتُها الآذانْ

أقبَلَ نحوي حاملو قبورِهِم

عيونُهُم مَقطوعَةُ الأجفانْ

رئاتُهُم فوقَ صدورِهِم تَدَلَّتْ

أسقَطوا عيونَهُم عليَّ صامتينْ

تَجاوَزوني دونَ أن يَلتَفِتوا ..

نَشَرتُ صَيحَتي وراءَهُم
رأيتُ صَوتي يَتَدَلَّى مِن فَمي
يَسقُطُ قَيدَ خُطوَتَينْ

يا حَمَّالَةَ القبورْ..

غابُوا،
وظلَّ الصَّوتُ قَيدَ خُطوَتَينِ في مَكانِهِ..

مَلعونَةٌ أسماعُكُم
مَلعونَةٌ أسماؤكُم
مَلعونَةٌ خُطاكُم..

دَنَوتُ مِن صَوتي
كَوَّرتُ رأسي عندَهُ
رأيتُني مُنخَلِعَ السُّلطانْ

أغمَضتُ عَيني

لاحَ لي كالحُلُمِ الغائِمِ نَسرٌ هائِلٌ

طافَ على الكونِ جَريحاً

يَعبُرُ الآفاقَ

يَنثالُ دَماً

يَدوي دَوِيّاً

ثمَّ يَهوي خَيمَةً مَخضوبَةً

أحسَسْتُهُ يَلفُظُ بينَ أضلُعي أنفاسَهُ..

ألمَحُ أرضاً خَلَعَتْ عِذارَها

ألمَحُ صِبياناً يُمارسونَها

تَرقُصُ بَينَهُم

تَعَرَّتْ

يَطأونَ عُريَها

تَضحَكُ

يَركلونَها

تَضحَكُ

شَدُّوا مُقلَتَيها

رَقَصَتْ عَمياءَ

دارَتْ بَينَهُم

مَدَّتْ يَدَيها

بَصَقوا في يَدِها..

تَوَقَّفَتْ..

بَكَتْ..

وَمَسَحَتْ راحَتَها بِعُريِها

داروا عَليها يَضحَكون

بَصَقوا في يَدِها الأُخرى

طَوَتْها

زَخَرَتْ دموعُها

سالَتْ بِهِم..

وانفتَحَتْ حَدَّ التِقاءِ طَرَفَيها القَوسُ،
مَدَّتْ سَبأٌ يَدَيها..

أيَّتُها الآذانُ
تَستَقرَّ بينَ مُقلَتَيَّ إصبَعٌ لَستُ أراها
إنَّني أُسلَبُ

- يا عابرَ نَهرِ المَوتْ
هذا تُرابٌ لم تَطَأْهُ رؤيَةٌ قَبلَكَ
فانشُرْ مُقلَتَيك

- يا مُنادي سَبَأٍ عُصِيتُ..
هَل صَوتيَ صَوتي؟
إنَّها الرِّيبَةُ
هَل عَينيَ عَيني؟

دارَت الإصبَعُ دَورَتَينْ

لَمَحتُ ظلَّها على مَعابِرِ الأفلاك

ثمَّ انحَدَرَتْ تَهوي هُوياً

واستَقَرَّتْ بينَ مُقلَتَيّ

فَتَحتُ عَيني

نَبَتَتْ بَرقاً وراءَ القَوسْ

يا رُجُمَ المَدينَه

يا عاد..

يا ثمودْ..

إنِّي وجدتُ مَعبَراً

تَداخَلَتْ في لَحمِها الجلودْ..

يا جُثَثَ المَدينَه

لقد وَجَدتُ مَعبَراً

فَلتَتبَعوني

وَيلَكُم

جلودُهُم تَقسو

جلودُهُم تَنمو إلى الداخِلِ

صارَ اللَّحمُ

صارَت العِظامُ

صارَ الرُّوحُ جلداً

وَيْ..

لقد ماتُوا إلى قَرارِهِم..

يا أهليَ اخلَعُوا جلودَكم لعَلِّي أُبصِرُ ارتِعاشَةَ الحياةْ

يا أهليَ افتَحوا اللَّحمَ طَرِيَّاً

واغرزوا جذورَ خَوفِكم

جذورَ حُبِّكم

جذورَ قلقٍ يَصِلُّ تحتَ العَظمِ

يا أهلي هَبوني صِدقَكُم..

لا تَرثِي الدَّمعَ ولكنْ كوني أيَّتُها الآذانُ شَهيداً

أنَّ الرَّبَّ بَكى

تَتَثَلَّمُ شَفرَةُ عَينَيَّ فَتَختَلِطُ الرُّؤيا

مَن مُنذِرُ هذا الرَّبِّ

بأنَّ رَهيباً،

سَدَّاً يُدعى مأرِبَ

يَتَهَدَّمُ هذي السَّاعَةَ في عَينَيهِ

فلا يُبصِرُ شَيَّا

إنِّي عندَ حدودِ سَبَأْ

أيَّتُها الآذانُ انكَسَرَ البَرقْ

ليلٌ أسوَدُ هَمَجيٌّ كالغِربَانْ

كلُّ شهابٍ أُفرِعُهُ يَفقأُ عينَيهِ ويغطسُ في بيرْ

إنَّ هَديراً دَمَوِيَّاً يَزحَفُ مِن كلِّ فِجاجِ الأرضِ

فَيَبتَلِعُ الصَّوت

أنا المَخنوقُ بِدَمعي

بِدَمٍ يَتَكَثَّفُ في حَلقي

أدعوكم أن تَلتَقِطوا هذا الصَّوتَ الوَحشيَّ

هيَ الرُّؤيا تَتَمَثَّلُ جَسَداً حَيَّاً

فَلتُورِقْ أشجارُكُمو آذاناً

تُفرِعْ أذرِعَةً

كلُّ ذراعٍ تَفتَحُ راحَتَها عَيناً

إنَّ الطُّوفانُ أتاكُم

الطُّوفانُ أتاكُم

الطُّوفانُ أتى..

الطُّوفان

حَبَّةُ رَملٍ تَدفعُها قطرَةُ ماءْ

ضِرسٌ تَنبعُ مِن حُفرَتِها قطرَةُ دَمْ

حَبَّةُ رَملٍ أكبَرُ

تَدفعُها قطرَةُ ماءٍ أكبَرْ

الضِّرسُ المَخلوعَةُ تَنمو

حُفرَتُها تَنمو

دَمُها يَنمو

مأرِبُ يَتَهَدَّمُ

يَزحَفُ

الطُّوفانُ أتى..

رملٌ في الأهدابْ
رملٌ في الرُّوحِ،
ورملٌ في الأثوابْ
رملٌ في الأبوابْ
وصَفيرْ..

سُدُمٌ تَنهارْ
وجَرادٌ مِن نارْ
بملايين الأنيابْ
يَهوي ويَطيرْ..

تَنتَشِرُ الصَّحراءُ،
وتَركضُ هاربَةً
كلُّ حُبَيبَةِ رَملٍ تَنمو جُمجُمَةً

تَتَدَحرَجُ،

والأنيابُ تُلاحقُها

قَرقَعَةُ الرَّملِ العَظميِّ تَصُكُّ الآذانْ

الطُّوفانُ أتى

الطُّوفانُ أتى

جاءَ الطُّوفانْ..

دِهلَةُ لَحمٍ تَختَلِطُ الأيدي والأرجُلُ والأحشاءْ

أفواهٌ مَفغورةٌ يَندَلِقُ الدَّمُ منها واللَّبَنُ المَرضوعُ

بِلَونِ القارْ

الدِّهلَةُ تَزحَفُ،

تَمضَغُ وَجهَ الأرضِ

وأحشاءَ الأرضِ

وأضرِحةَ الأرضِ

فَتَسمَعُ طولَ اللَّيلِ صِرَاخَ الموتى

فإذا أشرَقَت الشَّمسُ اختَبَأَ الآكِلُ والمأكولُ

فلا تَسمَعُ صَوتا

تَنتَشِرُ بِعَرضِ الكونِ ذراعانْ

وَيَعلو المَدُّ

فَتَظهَرُ ساقانْ

وَمَساميرُ وقُضبانْ

ورأسٌ يَتَدَلَّى

يَبكي،

وَيَسيرْ

تَتبَعُهُ آلافُ الصُّلبانْ..

تَخرُجُ مِن قلبِ المَوجِ رِقابٌ

تَمتَدُّ

تَلوبُ بأرؤسِها فوقَ الدِّهلَه

مَفغوراتِ الأفواهْ

مَفغوراتِ الأحداقْ

تَنظرُ عُمقَ الكونْ

تَصرَخُ عُمقَ الكونْ

ثمَّ تَعودُ إلى الدِّهلَةِ مَلويَّاتِ الأعناقْ

أصدافُ الأعيُنِ تَطفو،

تَبكي،

ثمَّ تَغيبُ إلى القاعْ..

أتَقَرَّى دَرباً بيَدَيَّ خلالَ الجَسَدِ الدَّمَويِّ الزَّاحِفْ..

كَفٌّ حَجمَ البَيضةِ

قُطِعَتْ مِن مِعصَمِها

تُمسِكُ ثَدياً

والثَّديُ يَسِحُّ حَليباً فوقَ أصابِعِها المَخضوبَةِ

بالدَّمْ..

أتَعثَّرُ،

والتَصقَتْ شَفَتايَ بِقُرصٍ لَحميٍّ

أرفَعُهُ..

فأضاءَتْ بينَ يَدَيَّ شَظيَّةُ بَرقٍ

وإذا القُرصُ اثنَينِ التَصقا عندَ الفَمْ

الأكبَرُ مَعجونٌ بِضَفائرْ

والأصغَرُ خصلَةُ شَعرٍ

ثَقَبَتْ هامَتَها خِضرِمَةٌ

تَتَدَلَّى فوقَ الجَبهَه

تَطفو عَدَدَ الرَّملِ عيونٌ

تَبكي

ثمَّ تَغيبُ إلى القاعْ

يَرتَفعُ المَوجُ وَيَنهَدُّ

فَتَركضُ أجسادٌ عاريَةٌ

تُدركُها الأمواجُ

تُغَطِّي الأقدامَ

تُغَطِّي السِّيقانَ

تُغَطِّي الأعناقْ..

تَطغى..

تَنفَتِحُ القَوسْ

سَبأٌ عَبرَ القوسِ المَفتوحَةِ تُومئُ

وَيْ..

لو كانَ معي أقدامي

لو لَحمي وَعِظامي..

تَرتَفعُ الدِّهلَةُ زَبَداً بُركانيَّاً

تُفتَحُ فُوَّهَةٌ

تَنهَضُ غابَةٌ قَصَبٍ تَحملُ جَسَداً أبيَضَ

مَفغورَ العَينَينِ

تَدَلَّى مِن فَمِهِ السِّيجارُ فَمَسَّ الذَّقنْ

وانخَسَفَ المَوجُ

فَمالَ الجَسَدُ المَحمولُ إلى القاعْ

مأرِبُ يَزحَفُ مِن كلِّ فِجاجِ الأرضِ

انثَقَبَ الطُّوفانُ

وَنَدَّتْ كتلَةُ لحمٍ أسوَدَ تَصرخُ

واختَلَطَ المَوجُ فَلم أتَبَيَّنْ مِن وَجهِ الصَّارخِ

إلاّ عَينَينِ مُمَزَّقَتَينِ تَخُرَّانِ دَماً

ورأيتُ أكُفّاً سُوداً تُغرَزُ في العُنُقِ السَّوداء

فَتَزرَقُّ إلى أن يَتَفَجَّرَ منها الدَّمْ..

تَسحَبُها الأيدي السُّودُ إلى الأعماقِ

فَتَغمُرُها الدِّهلَه

أيَّتُها الآذانْ

ما زلتُ أُخَوِّضُ في الطُّوفانْ

ألقُطُ أعلاماً لِسَبأْ

أُبصِرُ صَفصافاً يَحكي
وَعَجائِزَ نَخلٍ تَبكي
وَعَصافيرْ..
مِلءَ الأرضِ عَصافيرْ
يَخرُجُ منها الدُّودُ
عيوناً وَمَناقيرْ..

أُبصِرُ أثداءً مَبتورَه
تَرشَحُ لَبَناً
فوقَ مُهودٍ مَهجورَه..
وَعَويلْ
وجذوعَ نَخيلْ
كُلاًّ يَحضُنُ شَعفَتَهُ المَقطوعَه
والطَّلعُ يَسيلْ..

تَبلُغُها الأمواجُ

فَتَطفو شَعَفاتُ النَّخلِ

وَيَطفو الطَّيرُ

وَتَطفو الأثداءْ

وَتَغيبُ جَميعاً

لا يَبقى غير جذوعٍ جَرداءْ

ومهودٍ خاليَةٍ تَتَأرجَحُ فوقَ الماءْ..

يا أحداقاً ليسَ تَرَى

يا آذاناً لا تَسمَعْ

مَن يُبلِغُكِ الآنْ

أنَّ مَرايا الدُّنيا أجمَعْ

لا شَيءَ يُرَى فيها

إلاّ جُرحٌ يَدمى

أو عَينٌ تَدمَعْ..

أتَخَبَّطُ في الدِّهلَةِ

لا أدري أينْ

مُنطَفئَ الرُّوحْ

مُنطَفئَ العَينَينْ

وإذا بِرؤوسِ شَياطينْ

في عَوَّاماتٍ مِن طينْ

تَختَرقُ الدِّهلَةِ نحوي..

تُدركُني

وَيْ..

هذي الأوجُهُ أعرفُها

وارتفَعَ المَوجُ فَطَوَّقَ أوساطَ النَّخلِ إلى أن مَجَّتْ

كلُّ الأعذاقِ دَماً

أوشَكتُ أصيحُ

فَغَطَّتْ وَجهي كومَةُ لَحمٍ
وصُراخُ امرأةٍ
في يَدِها رأسُ رَضيعٍ
يَنظرُ لي وهوَ يُحَرِّكُ فَكَّيه..

مَسَحتُ الدِّهلَة عن وَجهي
ونَظَرتُ إليه
فإذا لَحمٌ يَنزِفْ
وأصابيعُ رَضيعٍ تَرجِفْ
تَبحَثُ عن شيءٍ تُمسِكُهُ
فَسَقَطتُ إلى الأعماقْ..

كم في حِسابِ الزَّمَنْ
مَرَّ على مَوتي
حتى استطاعَ أن يُعيدَني إلى صَوتي
مَن لستُ أدري مَن..؟

حينَ استَفَقتُ

كنتُ في عَوَّامَةٍ من الطِّينْ

وكانَ حولي بَشَرٌ كأرؤسِ الشَّياطينْ

رَفَعتُ رأسي،

أسقَطوا عيونَهُم عَلَيّ

مَليئَةً بالنُّورْ

ياه..

إنَّهم حَمَّالَةُ القبورْ..

تَبَسَّموا حينَ رأوني مَعَهُم أجري

يَحملُني قبري

عَرَفتُهُ مِن مَلمَسِ الطِّينِ

تَكوينُهُ كانَ كَتَكويني

رائِحَتي.. ذاكِرَتي.. حتى شَراييني

أحسَستُها تَنقُلُ بينَ جَسَدي وبَينَهُ الدِّماءْ

صَرَختُ..

ضجّ الصوتُ في مَعابرِ الفضاءْ
وأورَقَتْ كلُّ الدُّنا آذانْ

أدَرتُ عيني..
كانتْ الرُّموزُ والأسماءْ
تَعلو روَيداً فوقَ سَطحِ الماءْ
وكانَ، مَدَّ البَصَرْ
يَنحَسِرُ الطُّوفانْ..

(*) في الفصل إشارات لا يخطؤها القارئ إلى السيّد المسيح، وتشي جيفارا، وباتريس لومومبا.

إرّم بعد الطُّوفان

هذا أنا الحامِلُ في راحَتِه عَلامَه
الخارِجُ الآنَ مِن القيامَه
يَبحَثُ عن سَبَأْ
سألتُ حتى الموتَ عن دَربِكِ فاختَبَأْ

هل أفزَعَ الزَّمانْ
شَكلي؟..
أمِن سُلالَةِ الكَهفِ أم الطُّوفانْ
أنا؟؟..

وَإذنْ،

فأنا في زَمَنٍ ليسَ زماني

ومَكانٍ ليسَ مَكاني

أم أنَّ الطُّوفانْ

مَكيدَةٌ أُخرى

لِلنَّومِ مِن جَديدْ

عَوَّضَ فيها الدَّمُ والنَّارَ عن الجَليدْ؟..

إرَمْ

يا أعظَمَ زلزالٍ في التَّاريخْ

يا أرهَبَ كَهفٍ في الدُّنيا

لو تَصدُ قُ هذي الرُّؤيا..

آخِرُ أنفاسِ الطُّوفانْ

تَلفُظُ ما بَلَعَتهُ الآنْ..

ياه..

صَمتٌ مَدَّ العَينْ

وخَرابٌ مَدَّ العَينْ

صَمتٌ..

وَخَرابْ..

جُثَثٌ لِبَشَرْ

جُثَثٌ لِقِطَطْ

جُثَثٌ لِكلابْ

جُثَثٌ في كلِّ مَكانْ

يَنخرُها الدُّودُ،

وَتَقضُمُها الجُرذانْ

وَحِجارْ..

مَدَّ العَينِ حِجارْ

وهُنا بُقيا بَشَرٍ

وهُنا بُقيا دارٌ

وَمَخاليقُ صِغارٌ

تَقتُلُ بَعضٌ بَعضا

تَأكلُ بَعضٌ بَعضا

وَتُقَفقِفُ بينَ الأحجارٌ..

دَنَوتُ منهُم

أغلَقوا الطَّريقْ

وَوَقَفوا..

عيونُهُم بَريقْ

ظنونُهُم بَريقْ

وَجِلدُهُم إبَرْ

نادَيتُهُم

تَكَوَّروا..

والتَجأوا كلٌّ إلى حَجَرْ

تَراجَعتُ مُنكَسِراً
خَرَجوا مِن مَكامنِهِم
نَظروا يَمنَةً
نَظروا يَسرَةً
وَمَضَوا هاربينْ..

يا بَقايا إرَمْ
جئتُ أحملُ صَوتي
بينَ مَوتي ومَوتي
باحِثاً عن سَبَأْ
فَقطعتُم عليَّ الطريقْ
أعَدوٌّ أنا؟
أم صَديقْ؟..

كلُّ العيونِ خَوفٌ
وكلُّهُنَّ اتِّهامٌ
وليسَ مِن نَفَسٌ
وليسَ مِن كلامٌ..

رأيتُكم أعينُكُم تَلوبُ في المَحاجِرٌ
وخوفُكُم يَذبَحُكم ذبحاً
ولا يُهاجِرٌ
رأيتُكُم دماؤكُم تَجري
ودُورُكُم تَنهارٌ
جَعَلتُ مِن أوردَتي أنهارٌ
وجئتُكُم أركبُ في قَبري

خَرَجوا مِن مَكامنِهِم
نظروا باتِّجاهي
نظروا في سكونٍ إلى بَعضِهِم

ثمَّ عادوا وَراءَ الأكَمْ

يا بَقايا إرَمْ
رُبَّما لستُ أُبصِرُ ما تُبصِرونْ
غيرَ أنِّيَ أعلمُ أنَّ العيونْ
لا تُخادِعُ أصحابَها
فَأنا أُبصِرُ الآنَ كلَّ الفَجيعَه

أُبصِرُ النَّظَراتِ المُريعَه
وهيَ تَبرَحُ في السِّرِّ أهدابَها
لِتُفَتِّشَ عن سَبَبٍ لِلقَطيعَه
أُبصِرُ اللّهَ يَبكي
والمروءاتِ تَبكي
وأرى كلَّ أعناقِكُم وهيَ تُلوَى
بينَ خوفٍ وشَكِّ

وا وَلَداه..!

وا أبَتَاه..!

وا بَيتاه..!

يا بَقايا إرَمْ

لا يأكُلْ واحِدُكُم أطفالَ أخيهْ

لا يَذبَحْ والِدَ أولادٍ كَبَنيهْ

لا يُبصِرْ واحِدُكُم مُحتَضَراً

فَيُدَشِّنْ خِنجَرَهُ فيهْ

حتى لو أبصَرَ قاتِلَهُ مَطعوناً

يا أهلَ إرَمْ

لا يَقْسُ عليهْ

لا يَذبَحْ شاهِدَهُ بيَدَيهْ

لَكأنِّي أرى أنهُراً مِن دموعْ

وَهَياكِلَ مُنخَلِعاتِ الضُّلوعْ

وأرى سُفُناً دامياتِ القُلوعْ

وأرى النَّاسَ تَظما

وأراها تَجوعْ

وأرى كلَّ جِذعٍ صَليباً

وأرى كلَّ شَخصٍ يَسوعْ

وأرى كلَّ آصِرَتي يَرحَلونْ..

يا بَقايا إرَمْ

لَكأنِّي أرى كلَّ مَن في دَمي

مِن دَمي يَنسِلونْ..

دامياً يَتَعَثَّرُ صَوتي

بينَ هذي الرِّجامْ

كلُّ شيءٍ ظلامْ

أتَخَبَّطُ بينَ الخَطايا

وبينَ الضَّحايا
السَّبيُّون قبلَ السَّبايا
والفَطيمونَ قبلَ الفِطامْ
ثمَّ أُبصِرُ لِلقَوسِ مَفتوحَةً
وبأعماقِها هاتِفٌ مِن سَبَأْ:

يا عابِرَ نَهرِ المَوتْ
هل تَملِكُ نَفسَ الصَّوتْ؟
أم غُيِّبَ عنكَ النَّبَأْ؟

كلُّ الوجودِ اختَبَأْ
فَأنا الآنَ وَحدي
مُفرَدٌ لِلقرارْ
مَن يُصَدِّقُ وَجدي؟
مَن يُصَدِّقُ أنِّي عَبَرتُ المَدارْ
ورأيتُ الذي كانَ قَبلي

ورأيتُ الذي كانَ بَعدي؟

يا ضَحايا إرَمْ
عندَما تُوقِظونَ لكم شاهِداً
مَرَّةً ثانيَه
إفقأوا مُقلَتَيهْ
وَغُلُّوا يَدَيهْ
واجعَلوا حَشْوَ آذانِهِ
صَوتَكم وَحدَهُ
لا يُنازَعْ
عليهْ..

يا ضَحايا إرَمْ
كلُّ صَوتٍ لَهُ شارَةٌ
وَلَهُ دارَةٌ
يَتَوَسَّطُها

فاحذَروا أن تَقولوا لِصَوتٍ

على ضَعفِهِ:

قِفْ بهذا المَدارْ

سَيُبالِغُ في رَفضِهِ

أو يُبالِغُ في الانكِسارْ..

وصدقت النبوءة